الحياة

لماذا طلبت العلم عن الصين؟

لبنى الأمين

الحياة، الأربعاء ٢٣ ديسمبر/كانون الأول ٢٠١٥

يسألني الكثيرون لماذا اخترت أن أدرس الكنفوشيوسية. أحيانا يكون جوابي طويلًا، أعرض فيه مراحل دراستي ابتداء من الجامعة الأميركية في بيروت وصولا إلى جامعة برنستون في الولايات المتحدّة، والصفوف التي أخذتها والأمور التي اكتشفتها عن تاريخ الصين والتي أوصلتني، من غير سابق تصميم، إلى كتابة أطروحتي الجامعية عن مفهوم السياسة في الفكر الكنفوشيوسي القديم. وأحيانا يكون قصيرًا جدًّا، يختصر بأنّه "صدفة" أو "لم لا؟".

ولكنّ الأجوبة المختلفة هذه كلّها ناقصة، لا تفسّر الخيار تمامًا. فمن جهة لم يكن فعلًا خيار دراسة الصين و الفكر الكنفوشيوسي خيارًا اتخذته بصورة مباشرة، وذلك بسبب واقع بسيط هو أنّه لم يكن من أحد يدرس الصين وفكرها في لبنان أو العالم العربي وقتها، أي أنّ الصين لم تكن جزءًا من العالم الفكري الذي نشأت فيه. ولكنّ دراستي للصين كانت، من جهة أخرى، نتيجة قرار آخر اتخذته بصورة واضحة، ألا وهو قرار عدم دراسة الشرق الأوسط أوالعالم العربي.

قرّرت ألّا أدرس الشرق الأوسط أو العالم العربي لأنّني شعرت أنّه هذا ما كان متوقّعًا منّي، كطالبة لبنانية. وفعلا، فإنّ الدهشة التي يعبّر عنها العديد اليوم كردّة فعل على دراستي للصين ما هي إلّا تأكيد على ذلك التوقع. ولا أعني بهذا التوقع أن يدرس إبن البلد بلده بصورة عامّة، بل أن يدرس الشرقيّون بصورة خاصّة بلاد منشأهم. فلو كنت مثلا أميركية أو فرنسية ما كان خيار دراسة الصين خيارا مفاجئا. أن يدرس الغربيّون بلادًا غير بلادهم ظاهرة معتادة ولها تاريخ طويل. أمّا الشرقيون، فينتظر منهم دراسة أنفسهم. فلأن لديهم معرفة حميمية بالثقافة التي ينتمون إليها، بالإضافة طبعا إلى الميزة التي تشكّلها لغتهم الأم، ولأن هذه المعرفة يفتقرها العالم الأكاديمي، يصبح الدور المرسوم لهم تطوير هذا النوع من المعرفة.

وقد تبدو هذه الظاهرة طبيعيّة تنم عن النقصان في المعرفة عن الشرق وعن قلّة المؤهلين الحصول عليها. ولكنّها، وإن كانت أسبابها مفهومة إلى حد ما، تفضي إلى تقسيم للعمل الأكاديمي له تداعياته السلبيّة على صورة الباحث الشرقي مقارنة بالباحث الغربي وبالتالي على فكرة المعرفة عن الشرق بالمقارنة مع المعرفة عن الغرب. فبحسب هذا التقسيم يدرس الباحث الغربي ما يشاء بينما الباحث الشرقي يدرس نفسه، فيكون الأوّل إذن عالمًا بالمعنى العريض للكلمة بينما يكون الأخير أشبه بالمخبر يعتمد على تجربته وليس على قدرته على تخطّي هذه التجربة. وتغدو بذلك المعرفة المتعلّقة ببلد شرقي كلبنان بمثابة معرفة حالة متخصّصة غير قابلة للتعميم بحد ذاتها، بينما لطالما استخدمت المعرفة عن الغرب (مثلا حالة فرنسا التي درسها بيار بورديو أو حالة ايطاليا التي درسها انطونيو غرامشي) كأساس للتعميم بصفتها ناتجة عن تفكير عالم، إذن هي علم.

أردت إذا، برفضي دراسة العالم العربي، رفض لعبة تقسيم العمل هذه ورفض النظرة الدونيّة التي ترافق صورة الباحث الشرقي. ولكنّني أجد هذه النظرة تلاحقني حتى بالرغم من اختيار موضوع أبعد ما يكون عن العالم العربي. فيصرّ البعض أنّ دراستي للصين ضرب من الجنون. أمّا البعض الآخر فيصف

دراستي للصين بأنّها النظرة "الإسلامية" للفكر الكنفوشيوسي. والتشخيصان وجهان لافتراض واحد: أنّ تفكيري محكوم لا محالة بالثقافة التي أنتمي إليها. لم نكن لنصف هذا البحث بالمجنون أو بالنظرة "المسيحية" عن الكنفوشيوسية لو كان الباحث غربيًا، لماذا إذن يصح هذا الافتراض في حالتي؟ إنّني اخترت البحث عن عالم مختلف بالرغم من تعلّقي الكبير وفخري بالثقافة التي أنتمي إليها، لذلك طلبت العلم عن الصين، وكان هذا خياراً حراً ومقصوداً.